

الشرق والغرب

قديمًا وحديثًا

للاستاذ عريان يوسف سعد

ورث العالم تركة لا يزال يحتفظ بها ويحوظها بحبه ، ولو أن التركة لا تزال موجودة لكان في ذلك الحق كل الحق . ولكن التركة بعد ما وصل إليه العالم من تطوّر قد ذابت واستعالت بخارًا تبدد في الآفاق ولم يعد لها من وجود اللهم إلا اسمها وسيرتها وأوصافها . كان العالم يعتقد أن الأرض مسطحة تشرق عليها الشمس من ناحية وتغرب في الناحية الأخرى فاصطلح العالم على أن يسمى ناحية شروق الشمس شرقًا وناحية غروبها غربًا وكان الشرق يبعد عن الغرب بعدًا شاسعًا يوم كان السير على الأقدام وسيلة انتقال الإنسان من مكان إلى مكان فلما استطاع تذليل الحيوان من الحصان والجمال لم تنقص المسافة بين الشرق والغرب فبقى الشرق شرقًا والغرب غربًا يمتاز الشرقيون بشرقيهم ويفتخر الغربيون بغربهم وانعقد العالم مع الزمن جيلًا بعد جيل يتسلم كل جيل من سابقه تلك التركة تتأثر بها علاقات الإنسان كل التأثر وتتأثر بها العادات والطباع والأخلاق واللباس .

ولقد جاء دورنا وهذا جيلنا ولا تزال تلك التركة بين أيدينا أو لا تزال بين أيدينا صفاتها واسمها ولكن هل هي موجودة حقًا أم أنها كما قالت قد تبخرت مادتها ولم يبق إلا تاريخها نظمه حقيقة كما كانت في الأجيال الماضية .

أين الشرق وأين الغرب ؟ !

العالم يعيش على كرة ضخمة تدور حول نفسها فيستقبل كل جزء منها نور الشمس في دوره ثم يختفي عن النور ليستقبل جزءًا آخر ذلك النور فلا مشرق للشمس ولا مغرب ولا مكان تشرق على سطح الأرض ولا مكان غربي ومع ذلك لا يزال العالم يتمسك بتلك التسمية الخاطئة الشرق والغرب .

كان الشرق شرقًا وكان الغرب غربًا حتى بعد أن عرف العالم أن الأرض كرة تدور واستمر كذلك لأن المسافة بين أجزاء تلك الكرة كانت لا تقطع في أقل من سنة وكان ابن الشرق للشرق وابن الغرب للغرب لأن الوقت الذي كان يفصل بين الشرق حتى يصل إلى الغربي وبين الغربي حتى يصل إلى الشرق كان وقتًا طويلًا كافيًا لأن يحتفظ كل منهما بطابعه وخصيئته .

فهل العالم الآن وقد أصبح الشرق يستيقظ في الشرق صباحًا ثم يركب طائرة تطير به فبييت في الغرب ليلا هل العالم الآن يحوى شرقًا وغربًا كما كان يحوى الشرق والغرب في الأجيال الماضية .

انقد أصبح الشرق والغرب في العالم الحديث بعد تقدم الطيران مكانين متجاورين كالقاهرة وحوان من مائة سنة فإن الرجل ما كان يستطيع أن يقطع المسافة بينهما في أقل من يوم فيستقظ في القاهرة صباحا ويبيت في حلوان ليلا .

نعم انقد أصبح الشرق والغرب متجاورين كحلوان والقاهرة أو باريس وفرساي . بل انقد أصبح العالم كله كمدينة واحدة بل كغرفة واحدة .

أصبح كمدينة واحدة تنقل الرسائل والصور من طرف العالم إلى طرفه الآخر بالبرق في ساعة واحدة كما كانت الرسائل تنقل في المدينة الواحدة في الأجيال الماضية بواسطة السعاة مشاة وركبانا .

وأصبح العالم كغرفة واحدة يسمع الرجل في طرف العالم حديث الرجل في الطرف الآخر بواسطة الراديو والتليفون اللاسلكي .

وبعد قليل سيرى الرجل في طرف العالم صاحبه في طرفه الآخر حين يعمم التليفزيون . الشرق ينتقل إلى الغربى بين الصباح والمساء والشرق يتحدث إلى الغربى وينصت إلى حديثه في لمح البصر .

فكيف يبقيان وهذه صلتها ببعضهما كيف يبقيان كما كان أجددهم شرقيا وغربيا . كان أجدادنا في الشرق منقطعين عن أجداد الغربيين في الغرب ، نقطعا يدح أن يكون بينهما شرقيا والآخر غربيا في التفكير واللباس والعادات والعلوم وكل شيء .

أما الآن فقد امتزج العالم ببعضه شرقيه وغربيه فلا يمر جيل آخر حتى يلبس العالم كله لباسا واحدا وتتقارب أذواقهم في الغذاء والطعام حتى تصبح واحدة .

أبعد هذا يجوز أن يبقى شرق وغرب وشرق وغربى وقد محا انطيران المسافة بين الشرق والغرب فتجاورا ومحا اللاسلكى الانقطاع الذى كان بينهما فتحدانا وتسامعا ؟ !

هذه تركة كما بدأت اقول لم يعد لها وجود ولم يبق في العالم منها إلا صفات وأسماء لست أدري السرى الاحتفاظ بها أو بعبارة أصح أرى أن السرى الاحتفاظ بها هو تعلق الناس بالقديم عتزا به وتعلقا بذكرياته .

عزيز من غير شك على المحافظين أن يسمعو هذا اقول وسيكون حظه من التخطئة والسفاهة كبير ان كان له حظ على الإطلاق في كبر ظنى أنه سوف يتقابل بالاعراض والإلهال فهو أقرب إلى الهذيان في نظر المحافظين منه إلى القول المعقول .

الشرق والغرب اللذان عرفهما العالم منذ عرف العالم نفسه وعرف الشمس والقمر والجهات لأربع الشرق والغرب اللذان يحددان العالم الشرق والغرب يحددان في آخر الزمان من يقول ، عدم وجودهما .

هذا كثير من غير شك على العقل أن يسلم به وإذا سلم العقل بأن الشرق والغرب قد اختفيا إلا من كتب التاريخ فإن العقل نفسه يهتد بأن يختفى هو أيضا .
ولكن بالرغم من هذا أكرر أن الشرق والغرب قد امتزجا ولا أقول قد اختفيا امتزجا ناصبا شيئا واحدا فقد مح العلم ذلك الفارق بينهما مح العلم بالطيران المسافة بين الشرق والغرب فينبهما اليوم نزهة يوم واحد .

ومح العلم ما كان بينهما من انقطاع أو شبه انقطاع بعد الاتصال العلى والفكرى والروحى فبعد أن كانت الفكرة تنقل من الشرق إلى الغرب فى جيل أو أجيال أصبحت تنقل فى لحظة إذ يذيعها الراديو فيسمعها من فى أقصى العالم كما يسمعها من يجلس إلى صاحبها وهو يتحدث عنها فى نفس الغرفة .

لقد امتزج الشرق بالغرب ولم يبق إلا أن يعترف العالم بامتزاجهما فيصبحان شيئا واحدا أو يصبحان من أحاديث الماضى وذكريات الأجيال .
لو أن الشاعر الذى وجد فى بعد الشرق عن الغرب مادة لتصوير بعد الحى عن الميت حين قال :

والشرق نحو الغرب أقرب شقة من بعد تلك الخمسة الأشبار

أو أنه عاش اليوم ووجد أن الشقة بين الشرق والغرب يقطعها بين الصباح والمساء لما قارن بين تلك الشقة وبين المسافة التى تفصله عن وحيدته وهو فى قبر لا يبعد فيه عنه أكثر من خمسة أشبار وبحث عن شقة بين الأرض والسماء أو بين الأرض والتمر يقارن بها بعده عن وحيدته فى الحدة .

الشرق والغرب بعد أن كانا مهبطى الوحى على ساكنى الأرض فى طرفيها المتقابلين أصبحا الآن مكانا واحدا أو مكانين متلاصقين لا يفصل الناس فيهما إلا فاصل بسيط إن أراد أحدهما لقاء أخيه فى الطرف الآخر من الأرض يتلاقيان بين يوم وليلة فإن أراد التخاطب فكأنهما فى غرفة واحدة صغيرة .

لعل بدء الحديث قد وضع الآن ولعل تركة العالم وهى الشرق والغرب قد أصبحت فى الحقيقة تركة غير موجودة لم يبق منها إلا الاسم والصفات التى عنى الماضى بتفصيلها وتأليف الكتب فى أوجه الخلاف بين طرفيها .

ولعل الإنسان يتجه بعد اليوم إلى تنمية هذا التقارب وزيادة أواصره ولعل ما بقى من أوجه الخلاف بين الشرق والغربى تجدد من يعمل على محوها فيصبح الإنسان فى العالم إنسانا واحدا لا شرقيا ولا غربيا ولعل هذا يتم فى جيلين أو ثلاثة ولكن شيئا واحدا لا أشك فيه وهو أن هذا الامتزاج بين الشرق والغرب وقد مهد له العلم فى هذا النصف من القرون العشرين لن يتم قبل أن يغيب هذا القرن عن الوجود ويأتى قرن جديد لم يطلع بالدماء

قرن يكون قد سبقه تمهيد طويل لمنهج أجزاء العالم المتباعدة ببعضها بعد أن أصبح ذلك البعد بين أجزاء العالم عديم الأثر لا يفصل بين الإنسان والإنسان .

كان الكتاب يؤلف في الشرق فلا يصل إلى الغرب إلا بعد جيل أو أجيال فكان بين الشرق والغرب انقطاع تام في الفكر .

أما الآن فالعكس تبنت في الغرب فيراها الشرق ساعة ظهورها وأقرب دليل على ذلك مشروع بيردج الذي ما كاد يظهر في بريطانيا حتى عرفه العالم كله .

أين هذا من أيام الشرق والغرب حين احتفظ كل منهما بآرائه وأفكاره أجيالا طويلا لا يحس أحدهما بما عند الآخر؟

كان الشرق شرقا وكان الغرب غربا فيما مضى أما الآن فلا شرق ولا غرب إنما العالم كله مكان واحد يتبادل سكانه الأفكار والآراء والسلع كأنه أجزاء المملكة الواحدة إذا قيس الحال بما كان عليه في الأجيال الماضية .

ولكن للتقدم سلطانا على العقل عسير عليه أن يتخلص منه إلا بمضي الزمن الذي أ كسب ذلك التقدم سلطانه ولكن السرعة التي عمت العالم في كل شيء ستجعل ذلك التغيير أسرع خطى وأقرب نتيجة .

عمران يوسف سعد